الثقة بالآخرين بين الإفراط والتفريط

بقلم د. عبدالعزيز بن محمد أحمد بن حسين*

عندما نتحدث عن الثقة بالآخرين ـ وليس عن الثقة الزائدة بهم ـ فإننا نجد أن الثقة أمر مرغوب فيه، بل ومطلب ضروري لتيسير العلاقات بين أفراد المجتمع، لأن معظم صور المعاملات الإنسانية غير الرسمية تقوم على مبدأ الثقة بالغير وحسن الظن بهم، والأمثلة على ذلك من واقع الحياة كثيرة جداً، ونجد أن الفرد منا في تفاعله اليومي مع الآخرين يميل إلى إعطاء ثقته (بقدر ما) لكثير من الأشخاص الذين يتعامل معهم، فالمريض مثلاً في معظم الأحوال يفترض حسن الظن في الطبيب المعالج بدلاً من التشكك في كفاءته، والطالب يثق في معلمه، والفرد في تعامله المتكرر مع الآخرين لا يمكن أن يستغني تماماً عن الثقة بالآخرين، أو الوثوق به من قبل الغير، والفرد عادة يميل إلى إعطاء قدر من الثقافة بالأشخاص الذين تربطه علاقة بهم، أو الأشخاص الذين ألف التعامل معهم مثل الأقارب والزملاء، أو الأشخاص الذين يعكسون انطباعاً حسناً لديه، وذلك أكثر من إعطائه ثقة بالأشخاص الغرباء أو الأشخاص الذين يتركون إحساساً غير مريح لديه، أما على مستوى العلاقات الإنسانية الرسمية، فنجد أن مبدأ (التحقق) أو (التبين) يكاد يحل محل مبدأ الثقة. ومبدأ التبين يستند على البراهين والأدلة المادية وليس على عنصر الثقة المجردة، والثقة كمفهوم تتضمن الائتمان سواء في قول أو فعل بين طرفين أو أكثر، والثقة تدل أيضاً على حكم عاطفي ذي صبغة شخصية يطلقه الشخص المؤتمن (بفتح التاء وكسر الميم) على شخص يأتمنه (يثق به) في أمر ما.

وحتى لا يُساء استخدام التعامل مع الآخرين على أساس (مبدأ الثقة) بين الأفراد نجد أن التشريع الإسلامي الحنيف عالج موضوع الثقة من طرفيها، أي من ناحية الشخص المؤتمن (بكسر الميم) وهو الشخص الذي يثق بشخص آخر، وكذلك من ناحية الشخص المؤتمن (بفتح التاء وفتح الميم) حيث أرشدنا الشرع الحنيف إلى عدم التسرع بالتشكك بالآخرين، أو إطلاق حكم سلبي عليهم دونما وجود ضرورة وبينة واضحة لذلك، فقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم... الآية﴾ (سورة الحجرات، الآية: ١٢). وفي الحديث الشريف: روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث)... (متفق عليه). أما من ناحية الشخص المؤتمن (الذي وثق به شخص ما) فقد حرم الشرع الحنيف على المسلم كافة صور التحايل والغدر والغش، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك). أخرجه البخاري، وفي الحديث أيضاً : (من غش فليس منا).رواه مسلم.

وفي هذا دلالة واضحة على تهذيب النفس البشرية وترويضها على احترام ثقة الغير، والتحذير من استغلال هذه الثقة. وثقة الفرد بالآخرين قد تتكون عن طريق معرفة عميقة، أو قد تحدث أحياناً من خلال انطباع عابر، وترتبط درجة ثقة الفرد بغيره من الناس بخبرات الفرد نفسه، وتجاربه مع الآخرين، كما تتأثر درجة الثقة التي تتكون لدى الفرد بأسلوب تنشئته السابقة، وبطبيعة الموقف الاجتماعي الذي يمر به الفرد، ويميل علماء النفس إلى اعتبار أن الإفراط في الثقة بالآخرين أو الإفراط في حجبها عنهم هو مؤشر على سوء التوافق النفسي، فالشخص الذي يتعود إعطاء ثقة زائدة بالآخرين يوصف على أنه إنسان ذو شخصية خضوعية ومسايرة، تتسم بالجمود والسلبية.

أما الشخص الذي يبالغ في شكوكه بالآخرين، ويفترض عدم الثقة بهم، فعادة ما يوصف على أنه إنسان ذو شخصية قلقة متمردة، تتميز بالشك والحساسية الزائدة تجاه الغير. وفي حقيقة الأمر، ليس من السهل دائماً أن نتعرف على الحد الفاصل بين الثقة الزائدة بالآخرين وبين الثقة المعقولة بالآخرين، ولكن ـ في اعتقادي ـ عندما نستأنس بتجاربنا مع الآخرين وعندما نتوخى قدراً معقولاً من الدقة والتحري في معاملاتنا مع الآخرين، وبشكل يتناسب مع طبيعة الموقف، فإننا نستطيع بإذن الله تجنب الثقة الزائدة وما ينتج عنها من عواقب، لأن التاريخ الإنساني حافل بالكثير من الوقائع التي أثبتت خطورة الإفراط سواء أكان ذلك الإفراط في زيادة الثقة بالغير أو سوء الظن بهم.□

(*) أستاذ علم النفس الجنائي بجامعة الملك سعود.